

الإنسان المستلب The alienated human being

نسبية مزواد*، جامعة باتنة¹
noussaiba.mezouad@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025/11/16

تاريخ الاستلام: 2025/09/20

ملخص:

شهد القرن العشرون ظهور نظام سياسي غير مسبوق هو النظام التوتاليتاري، الذي تجسّد في النموذج الستاليني برو سيا والنازي بألمانيا. نشأ هذا النظام في ظل حكم الحزب الواحد، ليغدو التعبير الأقصى عن الاستبداد والدكتاتورية. في كتابها *سبب التوتاليتارية*، قامت حنة أرندت بتحليل بنيته وكشف آلياته القائمة على العنف والإرهاب، مبينة كيف حول الإنسان من فرد حرّ بكيان مستقل إلى مجرد كائن ذائب داخل جماهير بلا ملامح، يسهل التحكم في وعيها وإعادة صياغتها. ويفضل هذه السيطرة المطلقة، قلب النظام التوتاليتاري البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية رأساً على عقب، ليقيم مكانها منظومة جديدة شكّلت منعطفًا حاسمًا في مسار التاريخ الإنساني.

الكلمات المفتاحية: التوتاليتارية، جمهور، نازية، استبداد، الحرية.

Abstract:

The twentieth century saw the emergence of an unprecedented political system: totalitarianism, embodied in Stalinist Russia and Nazi Germany. Born under one-party rule, it became the fullest expression of tyranny and dictatorship. In *The Origins of Totalitarianism*, Hannah Arendt revealed its essence by examining mechanisms of violence and intimidation, showing how it reduced the human being from a free, independent self to

* المؤلف المرسل

a mere element dissolved in a faceless mass, whose consciousness could be reshaped at will. Through such total control, the regime overturned political, social, economic, and cultural structures, replacing them with a wholly new order that marked a critical turning point in human history.

Keywords: Totalitarianism, Public, Nazism, Authoritarianism, Freedom. □

مقدمة

إن التفكير في فكر حنة أرندت السياسي ومحاولة قراءة مشروعها يضعنا أمام مرحلة تاريخية شهدت العديد من التغيرات لجذرية على مستوى الافراد، التشكيلات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية وعلى مستوى التفسيرات التاريخية، كما شهدت مسخا على مستوى الهوية الفردية والمفاهيم الاصلية الطبيعية المتفق عليها وكذا القيم الانسانية، وفي المقابل شهدت تهافت العديد من المفاهيم الجديدة. جاء كتاب حنة أرندت "أسس التوتاليتارية" الصادر سنة 1951م كدراسة تفصيلية للأنظمة الشمولية وأجهزتها المتشابكة إضافة لاستراتيجيتها المتوحشة في التوسع والتي كانت سائدة في بدايات القرن العشرين وحتى منتصفه.

عايشت حنة أرندت هذه المرحلة التاريخية الانتقالية وخبرت مجرياتها عن قرب خاصة بعد ألقى النازيون القبض عليها ومن ثم هروبها لفرنسا سرعان ما تركتها متجهة نحو أمريكا، وهنا تظهر احترافية أرندت فعلى الرغم من أن منطلق الدراسة كان الواقع القاسي وكان تجربة شخصية والاهم كونها يهودية والتاريخ يظهر كيف عامل النازيون اليهود وكيف وصفوهم بالبق الذي يجب إبادته بالغاز وفعلوها يقينا، إلا أنها لم تدخل ذاتيتها في الدراسة بل على العكس اعتمدت على منظومة من المصطلحات الفلسفية والنظريات السياسية المتينة، فنجدها تنتقل بين حقبة فلسفية وأخرى بكل مرونة، فنجدها تارة تستفيد من هيدغر وتعود للفلسفة الكانطية تارة أخرى، أما حظ الاسد فقد كان للفكر اليوناني الذي أعادت تقويل مصطلحاته واستخدمتها في حبك نظريتها السياسية كما نجد إشارات عن الفكر الاوغسطيني خاصة في الجزء المتعلق بالتفسير

التاريخي، كما وظفت الفكر الروماني خاصة في التأصيل فكانت تظهر تمكنا كبيرا في التعامل مع المصطلحات الأم. استفادت حنة أرندت من مكتسباتها الفلسفية والسياسية في دراسة النظام التوتاليتاري وتفكيكه.

أولا: مسخ المجتمع:

ما كان للحركة التوتاليتارية مهما كانت قوتها ومهما كانت عبقرية زعمائها أن تتسع لتشمل جزء كبيرا من العالم لو لم تلق دعما قويا من قبل مسانديها. فعل "المساندة" يدعوا للاستغراب وي طرح الكثير من التساؤلات بعد العلم بالجرائم الشنيعة التي اقترفتها النازية والستالينية من حرق وتهجير وطرده وإبادة جماعية وتصفية جسدية للملايين من البشر... إلخ، فوصول هتلر وحزبه "حزب العمل الألماني الاشتراكي الوطني" مثلا للحكم سبقتة انتخابات ديمقراطية نال فيها الألماني الذي أخذ جنسيته حديثا نسبة 33 بالمئة، والذي لم يكن باستطاعة مطلقا أن يبيد قري بما فيها لو لم يكن شعبه قابلا مرحبا بالأمر، وما كان ستالين هو الآخر ليجرأ على تصفية طبقات بأكملها لو لم يوافقه الروس. فكيف رضى الشعب الألماني والروسي بأفعال هتلر وستالين؟

إقبال الألمان على الحزب النازي الحامل لشعار "سنرد بعنف على من يحاول إرهابنا بعنف" (هتلر، 1990، صفحة 130) يحيلنا للاعتقاد بأن "غريزة الخضوع والرغبة الحادة في الطاعة وفي الامتثال لحكم يمارس من قبل إنسان قوي، هي على أقل تعديل، ماثلة في السيكلوجية البشرية، مثول الرغبة في التسلط" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 33)؛ هو شعور بالأمان وبالقوة معا يصاحبها تمجيد مبالغ فيه للعنف وتجسده الاستبدادية، فنجد المساندين يهللون "بإعجاب: لئن كان ذلك غير جميل، فانه بالغ القوة، بالتأكيد" (أرندت، 1996، صفحة 36). قبول المساندين لتلك القوة وذاك العنف مر بمراحل انحصر بداية في تطبيقه على الدول المجاورة والمعارضين من نفس الدولة ومن ثم قبلوا بتطبيقه على الاصدقاء والأهل المقربين لينتقل الامر في نهاية المطاف لقبول بالعنف على الفرد في حد ذاته. الامر نفسه نجده لدى ستالين الوريث السياسي للينين الذي وجد دعما كبيرا سمح له بمواجهة مختلف الازمات الداخلية والخارجية

والخروج منها منتصرا. هذا الدعم الذي وصل حد عبادة ستالين وهتلر لم يكن عشوائيا، بل سبقة تنظيم محكم وتحضير متواصل للشعوب من خلال وضع خطة "إعداد" تمثلت في اختزال كل طبقات المجتمع ومسح ملامحه، وبعبارة أخرى سبقه قيام بعملية تفرغ اجتماعي سياسي كبدائية أولية لنمو الحركة التوتاليتارية نتج عنها ما يسمى بـ "الجمهور".

"كلمة جمهور تعني في معناها العادي تجمعا لمجموعة لا على التعيين من الأفراد، أيا تكن هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسيتهم، وأيا تكن المصادفة التي جمعتهم" (لوبيون، 1991، صفحة 53)، لكن المعنى أخذ منحاً مختلفاً تماماً من وجهة نظر التوتاليتارية فعبّرت حينها على "الناس الذين عجزوا، لسبب أعدادهم المحضة، أو لسبب اللامبالاة، أم للسببين المذكورين معا، عن الانخراط في أي من التنظيمات القائمة على الصالح المشترك-أكانت أحزابا سياسية، أم مجالس بلدية، أو تنظيمات مهنية أو نقابية-توجد الجماهير بالقوة في كل البلدان، وشكل غالبية الشرائح العريضة من الناس الحيايين، واللامبالين سياسيا، والذين نادرا ما يصوّتون ولا ينتسبون إلى أي حزب" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، الصفحات 36-37)؛ استطاعت الانظمة التوتاليتارية خلق هذا التنظيم البشري بعد عمليات توسعية وحروب خاضتها تمكنت خلالها من الحصول على أعداد بشرية ضخمة تكون بعدها عمليات التصفية-باعتبار التصفية شرط أساسي في خطة الاعداد-ممكنة، عكس الدول التي لا تملك إمكانات بشرية تقودها التصفية حال استخدامها إلى إفقار مفعج في العدد السكاني، فيكون بذلك التعداد البشري الضخم شرط أولي لقيام التنظيمات التوتاليتارية والتي وجدت في المستعمرات الشرقية مصدر تغذية لا ينفذ.

صُنِعَ جمهور عديم الشكل كبير متشتت غير واعي، عديم الهوية، يتألف من مجموعة أفراد متماثلين تماثيلة رتيبة، كل واحد منهم لا يرى في وجوده أي نفع، لا مبالى إزاء الشؤون العامة، غير رافض، محايد في المجال السياسي، خائب، بائس، مظلوم، يطلق على نفسه كل صفات الفشل، لا يرى أي داعي من بقائه حيا، منطوي على نفسه -ينفر الجميع من بعضهم البعض لكن يعيشون معا

مكونين كائنًا هلاميا منظما ذو وظيفة جديدة على كل فرد منهم-، يمتلك شعور بأنه سيتم التضحية به في أي لحظة، لا يهتم برفاهه أبدا حتى أن الراهب المسيحي يبدوا منغمسا في شهوات الدنيا مقارنة به.

نشأة جمهور بهذه الصفات كان كنتيجة لعدة عوامل وخطوات كان من أهمها على الاطلاق خلق مجتمع شديد التفتت لا تربط أفراده أية علاقة سوى انضمامها لطبقة دون أخرى، كانت بدايته في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى أين انتشرت البطالة وتكتل الناس بدون هدف ولا وعي مما سهل على هتلر تحويل تلك الكتلة إلى جمهور. عكس ستالين الذي ورث عن لينين بنية اجتماعية متينة وقوميات متنوعة قائمة على أساس وعي بالاختلاف التاريخي والثقافي، ومجتمع مقسم إلى طبقات تعتبر طبقة المزارعين أهمها وأقواها وأكثرها عددا، إضافة لطبقة العمال التي سمح لينين لها بتشكيل نقابات مستقلة، والطبقة الوسطى التي شهدت نموا ملحوظا. تشكيلة المجتمع اللينينية لم تكن مناخا مناسباً لظهور تنظيم توتاليتاري فسارع ستالين للبدء بأولى خطوات التفتت، فبدأ بطبقة المزارعين إذ قام بمصادرة كل الممتلكات تطبيقا للقانون الشيوعي: وسائل الانتاج ملك للجميع، ولما أبدى الغولاك مواجهة قام ستالين بتصفيتهم جميعا فقتل الملايين وهجر الكثير واعتقل البقية، نفس الامر حدث مع الطبقة الوسطى وطبقة العمال إلا أن هاتان الطبقتان لم تبديا مقاومة كبيرة مقارنة بالغولاك، وكانت النتيجة أن أبيدت ثلاث طبقات بأكملها ولم يبق لها أي أثر.

لم يحل عام 1938م حتى أنهى ستالين "عملية الاعداد" بالقضاء على آخر المخلفات اللينينية والمتمثلة في البيروقراطية والتي تعرف على أنها "الحكم الذي يمارس عبر نظام معقد، لا يمكن في رحابه للبشر سواء أكانوا واحدا أو نخبة، قلة أو كثرة أن يعتبروا مسؤولين، ويمكننا أن نطلق عليه اسم "حكم لا أحد" (والذي) يعتبر وبكل وضوح الحكم الأكثر طغيانا، طالما ليس ثمة شخص يبقى ليسأل الحساب حول ما أنجز" (أرندت، في العنف، 1996، الصفحات 33-34) فليس هناك مسؤول بعينه توجه له أصابع الحساب، لكن ستالين لم يعاني من الامر إذ قام بتصفية عامة طالت حتى أعضاء حزبه نفسه والكثير من الخبراء

والكفاءات، والتي أثرت على جميع الميادين خاصة منها الجانب الاقتصادي الذي شهد أزمة زراعية أدخلت البلاد سنة 1933 في مجاعة زادت من الخسائر البشرية.

انتقلت الحركة التوتاليتارية للخطوة الثانية من خطوات التفتيت والتي صاحبت الابادات الجماعية إلى الفرد الذي طرأت على شخصيته مجموعة من التغيرات على رأسها تميزه بصفة "الانعزال" ونقص العلاقات الاجتماعية بل انعدامها، ويعود سببها لإستراتيجية زعيمى التوتاليتارية بابتداع ما يسمى بـ"الانتهام بالتداعي" وهي آلية بسيطة وحاذقة أن رجلا حالما يُتهم، يتحول أصدقاؤه القدامى تلقائيا إلى أعدائه الالقاء يشهد هؤلاء إنقاذا لوجودهم المحض في أن يتحولوا إلى وشاة ويسعون إلى اختلاق الادلة التي لا وجود لها، التي تثبت وشايتهم وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تثبت أنهم جديرون بالثقة" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 54).

انتشرت الوشايات بشكل كبير فسارع الكل يريد أن يبعد نفسه عن أي شبهة واتهام لأنك إن لم تفعلها أولا فعلوها بك هذا من جهة، ومن جهة أخرى نيل رضى الشرطة التي أعلنت أن البلشفي والنازي الحقيقي هو من يستطيع أن يحدد عدو النظام ويشي به، فصار كل فرد مهيباً لشهادة الزور في حق أي شخص والذي أطلقت عليه صفة "العدو الموضوعي" وهو المجرم الذي لم يرتكب أي جريمة أو ربما ارتكبها فهناك جريمة علنية يشترك فيها الجميع وهي "التفكير" فما دام الانسان يستخدم عقله ويفكر فهذا يعني أن هناك احتمال أن يقوم بانقلاب أو تمرد أو تشكيل تنظيم من شأنه أن يهدد استقرار الحكم، وفي هذا الشأن ترى التوتاليتارية أن ما من امرئ إلا وينبغي أن تستفز آراؤه الخطيرة وليس أحد إلا ويملك من ماضيه ما يسوغ الشكوك التي تثقل عليه فهو حامل نوازع" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 185).

شهادة الزور يفتتحها صاحبها بمجموعة من التبريرات مفادها أن العلاقة التي كانت تربطه بالعدو الموضوعي كان الغرض منها التجسس على مخططاته وكشف الجهة التي يعمل معها ومن ثم إبلاغ الشرطة، ويتحدد إخلاص الفرد وحيه للنظام بعدد الوشايات التي يقدمها، أما عن العدو الموضوعي فكان يواجه

التهم المسندة إليه والتي تختلف باختلاف العقبة الدارجة وقتها بسلبية تامة تصل لحد الاعتراف بكل التهم دون أي مقاومة تذكر، سلبية خلقها الرعب الشديد الذي يعيشه الفرد يوميا من جراء الاعمال الارهابية النازية والبلشفية. عشش الخوف داخل كل فرد من الآخر الذي سيفدي به نفسه في أي لحظة لهذا انعدمت العلاقات لانعدام الثقة. فنستطيع أن نتخيل اعتمادا على نتائج هذه الآلية أي مجتمع مشتت متناثر يرى الجميع في الجميع أعداءً استطاع النظام التوتاليتاري خلقه.

نعود لرجل الجمهور الذي نشأ كنتيجة لعمليات إبادة وحشية، فقد من جرائها كل قدراته وتلاشى فيها وعيه تدريجيا وحل محله "اللاوعي" فصار الفرد كالمنوم مغتاطيسيا غير قادر على إيجاد ذاته. تاهت هويته وشخصيته التي كان يتميز بها فتغير حكمه على الاشياء، غير متعقل لها، قابل لما كان رافضا إياه قديما رافض لما كان قابلا له تبعا لرفض وقبول الجمهور الذي وجد الفرد نفسه منتما إليه دون أن يشعر، فصار الحكم على الاشياء متعلقا بحكم الجمهور لا حكم الفرد.

لم تعد للفرد شخصية مستقلة بل انحل في الكل الجماعي و"هذا يعني أنه بمجرد أن ينضوي الفرد داخل صفوف الجمهور فإنه ينزل درجات عديدة في سلم الحضارة. فهو عندما يكون فردا معزولا ربما يكون إنسانا مثقفا متعلقا، ولكنه ما إن ينضم إلى الجمهور حتى يصير (...) همجيا (...) إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبة رمل وسط الحبات الرملية الأخرى التي تذروها الرياح على هواها" (لويون، 1991، صفحة 60)، الرياح هنا لا تتمثل غريزة الجماعة الهمجية كما يرى أصحاب التفسير النفسي، بل تمثل رغبة وسلطة الحاكم التوتاليتاري تتمثل في أوامر هتلر وستالين، نستطع الآن أن نبرر فعل "المساندة" وأن نفهم قبول كل تلك الهمجية بعد أن كانت مرفوضة ومستنكرة عند الافراد كل على حدى ومخالفة ل"إنسانيتهم" هذه الأخيرة التي اختفت بعد أن ذاب الفرد في الكل.

ثانيا: الدعاية الاعلامية:

قبل وصول أي حركة للحكم يجب أن تمر كخطوة أولية وضرورية على مرحلة جمع التأييدات وكسب أكبر عدد ممكن من المناصرين وهم المؤيدون للحركة- ومن الأعضاء وهم المجاهدون في سبيل الحركة- ويكون ذلك بالاعتماد على "حملة دعائية" لكسب الرأي العام المتطلع بشغف على مختلف الدعايات المنتشرة والمتأثر بأبلغها وأقواها خطايا. وهو ما انطبق على دعاية كل من ستالين وهتلر هذا الأخير الذي يرى في الدعاية عملا يقوم على كسب "الانصار وعمل الاعضاء هو اختيار الانصار وجعل المناسب منها عضوا في الحزب، ولا يتطلب من الانصار أكثر من الاخذ بالفكرة. ولكن العضو عليه أن يمثل هذه الفكرة ويدافع عنها وينشرها. لذلك كان الاعضاء قلة وكان الانصار أغلبية ساحقة" (هتلر، 1990، صفحة 212).

فالدعاية تسعى لنقل أفكار الحركة وترسيخها في عقول الاغلبية، وحتى تحقق الدعاية رواجاً يجب أن تكون الافكار جديدة لم تطرق من قبل، هذه الافكار تحتاج لأساس متين تقف عليه فقاموا بداية بزرع بذرة الفتنة بين الافراد وتحريضهم على الانقلاب والرفض العنيف وبالتالي التمرد على الأوضاع السائدة، ومن ثم تأتي مرحلة طرح الافكار الجديدة للحركة كبديل صحي لهذه الأوضاع. محاولة زعماء التوتاليتارية الآلية للتشكل لنشر أفكار جديدة يعني بالضرورة تحطيم الافكار القديمة هذه العملية المزدوجة تتطلب تنظيماً محكماً لأعضاء الحزب، فهتلر مثلاً باعتباره مدير الدعاية في الحزب يقول: "حرصت (...) على تصفية العناصر المائعة والمتردة والخائفة (...) فلو فتحنا مجال الدخول لعضوية الحزب أمام هذا النوع من الانصار المترددين لكنا قضينا على الحركة في مهدها ولأصبحت حركتنا حركة إخاء وحب وتقوى، وقد ترتب على إعطاء الشكل النضالي الحي لحركة الدعاية التي تسلمتها، ترتب على ذلك إظهار الحركة بمظهر التطرف (...) وجعل عضويتها وقفا على المتصفين بالجرأة والاقدام" (هتلر، 1990، الصفحات 215-216)، حمل كل من هتلر وستالين الدعاية أهمية كبيرة إذ يرتبط نجاح كل من الحزبين الشيوعي والاشتراكي

بنجاحها لهذا نجد هتلر وقد خصص لها تنظيمًا مستقلاً تكلل بإصدار جريدة نصف أسبوعية سنة 1920م، والتي اعتبرها هتلر أسرع وسيلة لغزو قلوب الشعب وكسب أكبر عدد من الانصار مع الحفاظ على نوعية الاعضاء.

نأتي الان للطرق التي اعتمدتها الحركة التوتاليتارية في دعايتها أي طرق نشر الافكار، نجد في المقدمة "الحملة الدعائية للقوة" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 83) والمتمثلة في الأعمال الارهابية إذ انتشرت مجموعة من الاغتيالات السياسية العلنية، هذه الاغتيالات كانت نداءات ضمنية للانضمام للحركة حيث الحماية والقوة معا متوفرة داخل حدودها أما خارج حدود الحركة فلا يستطيع الانسان أن يأمن على نفسه. تصاحب هذه الدعاية المباشرة دعوات ضمنية وغير مباشرة محملة بكل انواع التهديد والتعنيف والموجه رأسا لكل من يرفض التعاون معها ومساندتها وتكون هذه الايحاءات مدعمة بمجازر جماعية لأفراد يختارونهم عشوائيا دون تحديد اعتبرتهم الحركة محض أعداد. أما أنجح طريقة إعلامية فكانت تصريحات زعماء التوتاليتارية ذات الطابع النبوي وهو ما نجده واضحا في خطبهم، هذا الطابع النبوي التنبئي سببه اعتقاد كل من ستالين وهتلر أنهما المخلصان، فهتلر خاض أكثر من خمسين معركة وكان هو الناجي الوحيد من كل تلك المعارك ما جعله يعتقد أنه مختار من الله ليحرر الالمان وينتقم لهم من الشيوعية واليهودية.

لا تتأثر الجماهير بكل أنواع الدعايات وخاصة العقلانية منها، ولما كانت حدود الدعاية العقلانية التي تستسيغها الجماهير هي تلك "المتدنية إلى حد أنه لا يمكننا وصفها بالعقلانية الا عن طريق القياس والتشبيه" (لويون، 1991، صفحة 85) فيسهل على المخاطب تمرير خطبته لعقول الناس بكل سهولة اعتمادا على خاصيتين أساسيتين للخطاب تتمثل الاولى في إيجاد علاقات سطحية بين أشياء هي بالأساس متنافرة وثاني خاصية تتمثل في القيام بالتعميم العشوائي لتلك العلاقة على كل الحالات. بهذا كان الخطباء العقلانيون والذين يعتمدون على الحجج والبراهين المنطقية والذين أدهشوا الكثير من المفكرين المعاصرين فاشلون، فالجماهير تعمل خيالها أكثر مما تعمل عقلها وهو ما اتفقت أو أخذته

حنة أرندت عن غوستاف لوبون بقولها: "لا تعتقد (الجماهير) بشيء مما هو مرئي، ولا بواقع اختبارها نفسه، وهي لا تثق بسماعها ولا عيونها، إنما بمحض مخيلتها" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 92)، وهي من أهم وأخطر خصائص الجمهور النفسية والسياسية، وهو ما جعلها بعيدة كل البعد عن الواقع وتجلياته الواضحة منساقه نحو الخيال والأساطير وميالة أيضا للعواطف الدينية، وهو ما روج لفكرة الفوهرر هتلر ولستالين المعبود اللذان استغلا الفرصة فكانت كل نبوءة يدعيانها وتلقى من الجمهور إيمانا وترحيبا تحمل وجهين؛ فعندما يقف هتلر أمام المجلس الامبراطوري ويقول: "اليوم أيضا أذكر لكم نبوءة: إذا نجح رجال المال اليهود مرة أخرى في دفع الشعوب إلى حرب عالمية، ستكون النتيجة إبادة العرق اليهودي" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 89) أقول تحمل وجهين الوجه الاول وهو إعلان بعزم هتلر على إبادة العرق اليهودي، والوجه الثاني هو تحقق نبوءة هتلر بعد تصفية كل العرق اليهودي الموبوء. تصديق الجمهور لهذه النبوءات من أهم ميزاته خاصة بعد أن ابتعد عن الواقع واستغرق في عالم الوهم الذي صنعه النظام التوتاليتاري، ولعل أكثر الاوهام التي تم الترويج لها هو التوهم بوجود "مؤامرة يهودية عالمية".

ثالثا: التنظيم التوتاليتاري:

إرادة القائد التوتاليتاري هي القانون المتحكم في البلاد وعلاقاتها الداخلية والخارجية، والذي يتميز بالنشاط والحركية الدائمة والتي تعتبر شرطا لبقاء التنظيم التوتاليتاري واستمراريته، فما هو معروف عن الجماهير أنها متقلبة وتتحاز إلى الفاعل المسيطر الفارض لهيمنتها في حين تنسى كل من يتغيب عن الواجهة طويلا، لذا نجد القائد التوتاليتاري شديد الحرص على ضم الافراد النشيطة المجازفة إلى حزبه وأجهزته وعزل الافراد الكسالى العالة على الحزب، ضم الاعضاء وعزلهم لا يتم بطريقة عشوائية وإنما وفقا لاستراتيجية تقوم على "فكرة أقلية المنتسبين المحاطة بغالبية من المتعاطفين" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 111)، يشكل المنتسبون والمتعاطفون معا واجهة الحزب التوتاليتاري الذي وصل للحكم حديثا، واجهة بمعنى نقطة التقاء العالم

الخارجي غير التوتاليتاري بالحركة والتنظيم التوتاليتاري، هي المسؤولة عن نقل صورة الحزب للخارج ومحاولة ضم أكبر عدد من المتعاطفين.

يضم النظام إليه بداية المنتسبين ومن ثم يقوم بتلقيهم أفكارا جديدة غريبة وبعيدة كل البعد عن الواقع، لكن فئة المنتسبين تقبلها وتقتنع بها لأن الأفكار التي وصلتها كانت مغلفة بطابع إيديولوجي كلي جعلتهم يظنون أنهم صانعوا التاريخ والمسرّعين لعجلته للوصول إلى الخلاص، فتصبح فئة المنتسبين أهم مدافعة عن النظام وداعية للانضمام إليه من خلال الترويج لأفكاره. تقوم بجمع ما استطاعت من المعجبين بأفكارها وبعبارة أدق مجموعة من المتعاطفين والتي تتزايد أعدادها تبعا لحركية المنتسبين ومدى بلاغة خطاباتهم ودرجة إقناعهم وليس للذكاء وإعمال العقل أي فائدة، وفي هذا الصدد يقول هتلر: "من النادر أن نجد صاحب فكرة مؤهلاً للزعامة. ولكن باستطاعتنا إيجاد زعماء بين صفوف المحرضين مثلاً لأنهم يكونون أعلم من غيرهم بنفسية الجماهير نتيجة احتكاكهم بها. فالمفكر دائماً منطوي على نفسه مستغرق في تأملاته بمعزل عن الناس. فالتوجيه والقيادة يعنيان تحريك الناس أو الشعب. أما موهبة خلق النظريات والمبادئ فإنها لا تؤهل صاحبها للزعامة" (هتلر، 1990، صفحة 211).

ومن خلال فئة المتعاطفين تنتشر أفكار التوتاليتارية أكثر فأكثر نظرا لكونها أقرب الى الناس من كواد الحزب ومن المنتسبين أنفسهم فهناك روابط مشتركة بينهم وبين الناس العاديين، فالمتعاطفون لم يخضعوا كلياً بعد للحزب وهنا نستطيع أن نستشف الفرق بين المتعاطف والمنتسب فلو خيرنا مثلاً كلا الفريقين بين "الخضوع للحزب وحياته الخاصة فان الأول من شأنه أن يرجح الكفة... (بينما) العضو في فريق مناضل سرعان ما يتماهى بصورة مطلقة في الحركة" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 111). وبهذا فان المتعاطفين يلتفون بالمنتسبين، والمنتسبون يلتفون حول المناضلين... إلخ، فنقول أن شكل التنظيم التوتاليتاري يشبه البصلة كلما نزع قشرة وجدت تحتها الكثير. هذه التحولات في تشكيلة الدولة قسمت المجتمع وغيّرت من طبقاته

الاصولية فظهرت طبقات سياسية بدل الاجتماعية، تغير المجتمع وفقد ملامحه الطبيعية وعوّضت بصفات وضعية لا تمت للخصائص البشرية بصلة. سبق وذكرنا أن القائد يتميز بحركة دعوية فرضها على تشكيلات تنظيمه وهو ما نجده واضحاً في تزايد توالد الفرق بشكل كبير، فالفرقة أو الجهاز الواحد تتفرع عنه الكثير من التشكيلات وهذه التشكيلات هي الأخرى تنقسم إلى أجزاء، وكل جهاز من هذه الأجهزة يخضع للمراقبة حتى المراقبين أنفسهم يخضعون للمراقبة وهكذا. لا تخضع التشكيلات للمراقبة فقط بل حتى الزعيم يقوم بالتدخل الدائم والمباشر فيحوك "الدسائس بين أعضائها (...ويقوم) بتبديل أفراد قيادته باستمرار والأحرى أن تكون ترقيته المستمرة عائدة إلى مهارته القصوى في تحريك صراعات النفوذ الداخلي في صلب الحرب" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 120) حتى يبقى هو المسيطر على كل العملاء والموظفين يعزل من يشاء ويصفي من يشاء ويبقي على من يشاء، وفي المقابل يبقي هو على مكانته مصونة لا يجرأ أي أحد كان ومهما بلغ عدد المحيطين به على الانقلاب عليه، بل يؤمن الجميع أن الدولة بدونه سائرة نحو السقوط. إضافة لذلك فإن الزعيم تربطه علاقة وثيقة بموظفيه إذ يعلم بكل حركة يقوم بها كل فرد، يتحمل مسؤولية أخطائهم وتجاوزاتهم فكما احتكر السلطة لنفسك كذلك "احتكر لنفسه حق الشرح وإمكانيته، فبدا إزاء العالم الخارجي بمثابة الشخص الوحيد الذي يعرف ماذا يفعل" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 123).

توجه النظام بعدها نحو مختلف التنظيمات المهنية كالاطباء، المعلمين، المهندسين، الطلبة، العمال استطاع النظام الدخول بينهم بالاعتماد على فئة المتعاطفين ليضع يده على كل فئات المجتمع وبالتالي يسيطر عليها، فقام بتشكيل "سلسلة من الوزارات المزيفة التي جعلت على قياس الدولة المنتظمة، من مثل وزارة الشؤون الخارجية ووزارة التعليم والثقافة والرياضة، ... الخ ولم يكن لأية من هذه المؤسسات قيمة مهنية تذكر سوى في كونها تقليداً" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 128)، والمقصود من هذا التقليد هو السيطرة الكلية بعبارة أخرى فإن هيئة المحامين مثلاً هي فئة منظمة غير توتاليتارية

اجتماعية يمثل تنظيمها أكبر خطر يهدد النظام فكان لزاما القضاء عليها بطريقة لا تثير الشبهات والسخط، فشكل النظام هيئة بنفس الاسم والمميزات لكن الاعضاء من الحزب النازي حلت محل الهيئة الأصلية، ونفس الامر انطبق على الهيئات الاخرى فهيئة المدرسين تم القضاء عليها بهيئة مدرسين نازية وهيئة الاطباء تم القضاء عليها بهيئة أطباء نازية وهكذا.... وهنا نلاحظ أيضا أن المجتمع أخذ يفقد معالمه بعد كل التغيرات التي طرأت عليه فلا نجد نظاما قديما إلا وتم تعويضه بنظام نازي أو ستاليني جديد وغريب عن الطبيعة.

رابعا: التوتاليتارية في السلطة:

وصول الحزب التوتاليتاري للحكم حمل معه العديد من التغيرات على مستوى تشكيلة الدولة وبنيتها السياسية لتتناسب واستراتيجية الايهام التي كانت البوابة للتغلغل ومن ثم السيطرة على العالم، فاعتمدت على مبدأ "الازدواجية في الوظائف والمناصب" بمعنى أنهم حافظوا على الوظائف القديمة وتركوا المجالس والهيئات البرلمانية على حالها وبنفس موظفيها الاصليين لكن أضافوا لكل موظف أصلي موظف آخر عيّن من قبل التنظيم الحاكم، أي أن الوظيفة الواحدة يشغلها موظفين: الموظف الرئيسي والذي تركوه في منصبه ليكون واجهة خارجية وزينة ظاهرية تموهية تمثل السلطة الخارجية قبالة العالم الخارجي وحتى أمام الشعب، وموظف تابع للنظام وهو ممثل ومجسد السلطة الفاعلة التي تكون بيد الزعيم وحده وأي محاولة لتفعيل السلطة خارج الأطر النازية والبلشفية تعتبر "تمردا" وتهديدا للحكم وجب تدميرها وتصفية قادتها.

فستالين وهتلر هما مصدر السلطة ومركزها ومنها تصدر الاوامر التي يعتبرهما كل من الجيش الاحمر والأجهزة النازية "إرادة" وجب تجسيدها دون نقاش ودون أن يعيروا أهمية لطريقة تنفيذها ودون تفكير في مسارها وعواقبها كالألة تماما، كانت الأوامر تنفذ بصورة سريعة وحيوية ويرجع الامر لكثرة الاجهزة التي تتنافس فيما بينها تنافسا شديدا ففصائل الهجوم (SA) وجهاز الحماية والمراتب (S.S) وجهاز الامن في التنظيم النازي، جميعها تتلقى الاوامر التي تتقاطع أحيانا بل وتكون نفسها في أحيان كثيرة فتعمل كل واحدة منها

على المسارعة في التنفيذ حتى تنال رضى الزعيم، لكن الحقيقة أن الاوامر الفعلية كانت تسند لجهة واحدة هي فقط من يمارس النفوذ الفعلي أما البقية فكانت تسند لها مهمات لكن ليست بالمركزية، دون أن يعلم أحد من هذه التنظيمات أيها المفوضة فعليا وأيها المهمشة فيبقى الامر سرا حتى يتقن كل جهاز أنه منفذ إرادة الزعيم، وحال أحست إحدى هذه الاجهزة باحالتها للظل سارع الزعيم لإلقاء خطبه الرنانة يدعمها ويؤكد على أهميتها في مساره الثوري وخطاب هتلر الذي وجهه لفصائل الهجوم خير دليل يقول: "كل ما أنتم عليه الآن تكونونه من خلالي، وكل ما أنا عليه أكونه من خلالكم وحدكم" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 326).

ما حدث أن القائد التوتاليتاري كان ينقل السلطة بين الأجهزة بسرعة كبيرة فلا يتركها تطيل في جهاز واحد حتى لا تحتكر السلطة إلا من طرف القائد، وبين القائد والمنفذ لا وجود لوسيط فلا نلمح أي تراتبية في أنظمة الدولة مما يصعب تحديد شكل الحكم، فالتراتبية تفرض نوعا من الاستقرار وهو ما يتعارض وسيرورة النظام التوتاليتاري.

خامسا: الشرطة السرية:

تعدد الاجهزة لا يعني انتشارا للفوضى بل ساد نظام دقيق تحت إشراف مباشر للقائد الذي يعلم بكل التفاصيل معتمدا في ذلك على سلاحه السري والذي اعتبره "نواة السلطة التوتاليتارية في البلاد، أعلى من الدولة، وخلف واجهات السلطة الظاهرة، وفي متاهة الاجهزة المتعددة، وفي طيات كل التبدلات في السلطة وفي البلبلة التي يحدثها انعدام الفاعلية، ويعني بها الاجهزة الفائقة الفعالية والفائقة الكفاية لما ندعوه بالشرط السرية" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 180) استخدمها في البداية كجهاز تجسس زرعه في مختلف الدول الخارجية وداخل مؤسسات الدولة فكل موظف لديه من يراقبه. كما استخدمها كوسيلة لتنفيذ المجازر الوحشية والتصفيات الجماعية والفردية وملاحقة الخصوم الواقعيين، فكانت سنة 1930م في روسيا و1935م في ألمانيا هي نهاية المرحلة

الأولى والتي تمكنت فيها الشرطة السرية من "تصفية كل مقاومة منظمة، سواء كانت مفتوحة أم سرية" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 159).

انتقلت الشرطة بعدها للمرحلة الثانية مرحلة مطاردة "الأعداء الموضوعيين" والذي تفتت من جرائها المجتمع، وكلما تمكنوا من فئة وأبادوها حتى اتجهوا صوب فئة أخرى والتي تتحدد هويتها تبعاً للعقبات التي تواجه السلطة، والقضاء على فئة يعني أرشيفا وملفات ضخمة تحوي كل المعلومات عن العدو وكل المحيطين به؛ فالعدو الموضوعي قبل أن تقوم الشرطة بتصفيته يخبرهم بكل المعلومات عن حياته وعن أصدقائه وكل عائلته ومعارفه تجمع هذه المعلومات وتوضع في أرشيف.

لكن لماذا اعتمد القادة التوتاليتاريون على الشرطة ولم يعتمدوا على

الجيش؟

القمع الذي تتميز به الانظمة التوتاليتارية في توسعاتها الخارجية من إبادات للأفراد ومسح تام للقرى ونهب للثروات الاقتصادية، هو نفسه القمع الذي تطبقه على أراضيها وعلى شعبها فهي لا تميز بين سياسة داخلية وخارجية فحتى ثروات البلاد الداخلية كانوا يغتصبونها وينهبونها لصالحهم الخاص أي لصالح الحركة والشعب يعيش فقرا مدقعا، هو أمر ما كان للجيش أن يسمح بحدوثه أو أن يساوي بين شعبه وباقي الشعوب المستعمرة فيعاملها معاملة الفاتح المغتصب.

جهاز الشرطة والذي لا يعرف أفرادهم بعضا هو الذراع الايمن وسلاح التنظيم الفعال والمطلع الوحيد على أسرار السلطة العليا والمشاريع المستقبلية للحركة والثروة المنتجة التي يبذل القائد التوتاليتاري جهده في الحفاظ عليها وتقويتها. وهو الآلة المنفذة للأوامر مهما كانت طبيعتها دون تردد، فلا الجانب الاقتصادي ولا ثروات البلاد ولا الحركات التوسعية بأهم عند هتلر وستالين من صناعة كوادر في الشرطة متشابهة في الملامح والتفكير والانصياع، فالسلطة الفعلية والهيمنة التوتاليتارية تتحقق فقط من خلال الشرطة.

سادسا: السيطرة الكلية:

سعت الانظمة التوتاليتارية جاهدة لتحويل البشر على تعددهم واختلافاتهم وكذا انقساماتهم إلى "جمهور" أي جماعة بشرية واحدة ذات هوية ثابتة وجديدة "تفترض أن المصلحة الخاصة بالجميع يجب أن تكون معادية للمصلحة الخاصة بالافراد بشكل آلي لا بل دائم" (أرندت، في الثورة، 2008، الصفحات 109-110)، انهارت على إثرها الشخصية الفردية ذات الهوية المستقلة والارادة الفاعلة الحرة، صار الفرد مجرد "شيئ" جثة متحركة صنعها العنف والارهاب داخل المعسكرات، هذه الاخيرة التي تعتبر مؤسسة تُخرّج حيوانات خاضعة من عالم لا يعي أفرادها إن كانوا أموتا أم أحياء، لا يعرفون إن كان ما يعيشونه وهم أم حقيقة، من جراء الرعب الذي صنعه الارهاب الدموي في البداية والارهاب الكلي بعدها، الارهاب الذي سهّلت مهمته بعد أن تمكن من "أن يقتل في الانسان شخصه القانوني" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 221) فصار الجميع في نظر السلطة إما مجرما أو مشروع مجرم، توجه بعدها إلى الجانب الاخلاقي في شخصية الانسان محاولا تشويهها أو نسفها من أساسها، تفكيك الروابط بين الأفراد، تهجر الزوجة زوجها خوفا على أبنائها، تضحي الأم بأحد الأبناء حفاظا على البقية، الضمير لا يكون له أي أثر، يخون الصديق صديقه ويشي به حفاظا على نفسه، انتشرت الكثير من الافات وتعددت أشكالها وعلى رأسها الخيانة ففقدت القيم الانسانية معناها ولم يعد لها أثر.

قتل الشخصية الاخلاقية والسياسية القانونية تعني تدميرا لإرادة الشخص والفردانية هنا تكون الأنظمة التوتاليتارية قد نجحت وبشكل كبير في صناعة وتشكيل مسخ جديد، ذاب سريعا في الكل فلم يظهر له أي أثر، هذا الكل الذي صنعه الانظمة التوتاليتارية هو عالم منظم متشابه العناصر هو عالم من اللامعنى، عالم أفراد دون جدوى، شكلوا بتجمعهم المشتت أي تجمعهم علاقة مكان فقط ولا وجود لأي علاقة إنسانية- جسما هلاميا عديم المبادئ، مغتال الارادة، مسلوب الهوية، هذه المميزات هي المناخ الملائم لنمو التوتاليتارية وتوسعها، إذ ترتبط ارتباطا وثيقا بمجموع البشر وتتناسب طردا مع عبثيته؛ أي

كلما كان الجمهور مسلوب الارادة والوعي كلما غرست الآلة التوتاليتارية جذورها وبقوة.

ظهور نظام توتاليتاري جديد كليا هدفه السيطرة على العالم حمل معه الكثير من التغيرات الجذرية شملت مختلف جوانب الحياة السياسية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية، الاقتصادية كان من أخطرها على الاطلاق تغيير الطبيعة البشرية وصنع كتلة جديدة ذات مميزات وخصائص لا تمت للقيم الانسانية بصلة، ذات هوية مصطنعة ووضعية، بذل القائد جهدا كبيرا في خلقها على حساب الهوية الاصلية لكل شخص على حدى، هوية قام القائد التوتاليتاري بتدميرها وسحقها. هذه التغيرات الجذرية والتوتاليتارية صنعت منعطفًا في التاريخ وكان لها أن ساهمت في رسم مساره، ظنا من زعمائها أنهم مكلفون بإيصال التاريخ بسلام أو بهمجية لنهايته الزمكانية الستاتيكية لا المفارقة.

ادعي هتلر أنه المجسد لقوانين الطبيعة التي استقاها كما يرى بعض المختصين من التفسير الدارويني التطوري للأنواع (داروين، 2018)، إذ يرى هتلر باعتباره الفوهرر أن دوره في التاريخ يكمن في تسريع السيرورة التاريخية المتحركة ديناميكيا نحو الامام بشكل تصاعدي نحو العرق الأجدر والأبقى، فاعتبر هتلر أن الجنس الآري هو الجنس الأصلي والذي يستحق البقاء فسعى للحفاظ عليه كما سعى لتخليص التاريخ من المعوقات التي تحول دون تمجيد العرق الآري وتتمثل هذه المعوقات في الأعراق الدنيا، الشعوب المنحطة، اليهود، المعاقين، المشوهين، المرضى، الأفراد غير الجديرين بالحياة والطبقات المحتضرة. كان يتخلص منها بطرق مختلفة ووحشية كغرف الغاز والحرق وغيرها. ولكي يحقق هتلر هدفه اعتمد على الارهاب فهو الآلة التاريخية الوحيدة الناجعة للقيام بالتصفية، وهو وسيلة التاريخ لتجسيد قانون الطبيعة التطوري. اعتماد التاريخ على الارهاب واعتباره مجرد آلة غير مفكرة يعطيه حسب التفسير التوتاليتاري الشرعية والمشروعية لمثل هذه المجازر الاجرامية، بعبارة أخرى فإن المجازر التي تنفذ في حق الاشخاص لا يقصد منها شخص بعينه دون سواء بل نفذت لخدمة التاريخ ولتطبيق قوانينه.

الامر نفسه نجده لدى ستالين الذي تبنى الصراع الطبقي في تفسيره للحركة التاريخية مرتكزا على أفكار كارل ماركس وإنجلز فهو الآخر اعتمد على الارهاب حتى يمجّد الطبقة الاجدر أي الطبقة العاملة وأن أي قانون يصدره التنظيم يكون الهدف من ورائه تسريع الحركة التاريخية التقدمية ذات الشكل اللولبي المتصاعد للأعلى. وأيا يكن الصراع الطبقي الذي يهدف للوصول بالطبقة العاملة الى نهاية التاريخ في حدود قانون التاريخ، وصراع الاعراق الذي يهدف للوصول بالطبقة الاجدر "الشعب الالماني" في حدود قانون الطبيعة فان الناس انقسمت إلى قسمين: قسم خادم مطيع لقوانين التاريخ وقسم يشكل عقبة في وجه تجسيد قوانين التاريخ فيتم التضحية به. صوّر الارهاب التاريخ على أنه المتحكم في الانسان وما الانسان سوى "شيئ" يتم توجيهه دون مقاومة منه حسب الضرورة التاريخية، فتكون أي محاولة للتحرر الفكري أو العملي أكبر خطر يقف في وجه تحقيق مساعي الحركة التوتاليتارية التاريخية فيتم القضاء عليها حال ظهورها، باعتبار أن الحرية هي مجموعة من الامكانيات والاحتمالات المتاحة للفرد والتي يختار الانسب له ضمن مجموعة من الافراد فأرندت ترادف بين الحرية والفعل وهو ما حاربه الارهاب الكلي الذي جعل كل الاشخاص شيئا واحدا بدون حرية ودونما إرادة. فعلى الرغم من أن "النظام التوتاليتاري لا يني يبتز الحريات، أو يلغي الحريات الجوهرية، غير أنه لا يفلح على حد علمنا المحدود في استئصال حب الحرية من أفئدة الناس" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 254) حب غطاء الحب ودفنه.

السيرورة التاريخية حسب التفسير التوتاليتاري لا تتحكم في طبيعة الضحايا وحسب بل تتحكم أيضا في المنفذين للجرائم فهتلر المقدس للعرق الآري كان يختار أعضاء الحركة بالاعتماد على الصور الفوتوغرافية فالهيئة والشكل والأصل هي معيار الاختيار، فالقانون الطبيعي هو من يختار "ليس من ينبغي إلغاؤه فحسب، بل ذلك الذي يتعين عليه أن يتلقى الاعداد ليكون الجلاد" (أرندت، أسس التوتاليتارية، 1993، صفحة 257).

خاتمة

فلسفة التاريخ هي مبحث يحوز من الفلسفة جانبها القارئ للتاريخ باعتباره النص المقروء لاكتشاف سر التاريخ مرة واحدة وللأبد، من خلال تجاوز الحوادث الجزئية المحدودة وصولاً للمفارق الشامل، تعنى بدراسة التاريخ الكلي ذو القانون الواحد المتحكم في الانسانية جمعاء منذ بداياتها الاولى والى غاية المستقبل البعيد. اختلف النظامان التوتاليتاريان في تحديد محرك التاريخ لكنهما اتفقا على ذوبان الفرد في التاريخ، ليس للإنسان دور يذكر خاصة بعد أن قاما بتحويله إلى "شيئ" خاضع ومنصاع لقانون التاريخ الذي سيقوده قدما نحو النهاية. أما حنة أرندت فتري أن التاريخ هو مجموعة من البدايات والتي لا تتحقق فعليا إلا ب"الإنسان" وقدرته على الاختيار، الإنسان وجمله الامكانيات المتاحة، الإنسان الحر الفاعل، فالتاريخ لم يبتلع الإنسان بل تقول أرندت مستعينة بالفكر الأوغسطيني(أوريليوس، 2006)، فالانظمة التوتاليتارية هي عملية سحق للإنسان على كل المستويات والأصعدة الاجتماعية، السياسية، الثقافية وأيضا التاريخية.

قائمة المراجع:

- أودلف هتler. (1990). كفاحي (المجلد 1). (لويس الحاج، المترجمون) دار الأنوار.
- أوغسطينوس أوريليوس. (2006). مدينة الله (المجلد 2). (يوحنا الحلو، المترجمون) بيروت: دار المشرق.
- تشارلز داروين. (2018). أصل الأنواع (المجلد 1). (إسماعيل مظهر، المترجمون) مصر: مؤسسة هنداوي.
- حنة أرندت. (1993). أسس التوتاليتارية (المجلد 1). (أنطوان أبوزيد، المترجمون) بيروت: دار الساقى.
- حنة أرندت. (1996). في العنف (المجلد 1). (إبراهيم عويس، المترجمون) بيروت: دار الساقى.
- حنة أرندت. (2008). في الثورة (المجلد 1). (رامز بورسلا، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- غوستاف لوبون. (1991). سيكولوجية الجماهير (المجلد 1). (هشام صالح، المترجمون) بيروت: دار الساقى.